خيبة الأمل التي تعرض لها اثناء مرضه عام ١٥٥٣ اجتاحه الخوف من انه في حال موته فإن البويار سيعزلون ابنه وولي عهده إيڤان ويسجنون اناستاسيا في دير بعيد . حقا كان قد اجبر ابن عمه فلاديمير اندرييڤتش أن يساند ولي العهد تحت طائلة القسم ولكنه لم يكن من النادر أن يرى المرء رجالاً ضحوا بسلامهم الأبدي من أجل العرش . كان يثق بابن عمه ، ولكنه إذا مات فهل لن يمارس البويار ضغطاً على فلاديمير ليحملوه على التنكر لقسمه والاستيلاء على العرش ؟. اما الكسي اردااتشيف فعلى الرغم مما أدى له القيصر من الخدمات وما منحه من العطايا فإنه لم ينس ما قام به هذا الشاب من إعراض في اللحظة الحرجة من عام ١٥٥٣ . وكان لايزال مستمراً في الإصغاء لنصائح الكاهن سيلڤستر ولكنه كان يعرف مع ذلك أن هذا الراهب لم يكن يحب أناستاسيا . وكان بإمكانه الاعتماد على إخلاص المتروپوليت ولكن ماكاري كان مريضاً وضعيفاً . وعلى الرغم من كل سلطة الكنيسة فإن الحبر لم يكن ضماناً لمستقبل أمراته ووريثه . كانت الضمانة الوحيدة هي في ان يحافظ على حياته الشخصية كدرع ودريئة حتى يبلغ ولي العهد سن النضج .

كان بإمكانه أن يتخلص من كل اولئك الذين عارضوا مخططاته لولا أن أناستاسيا كانت تعارض الشدة وسفك الدماء في البلاط . « فلنحارب أعداء روسيا لا أن يحارب بعضنا بعضاً » . فتلك الأخلاق الحليمة التي تتألق بالحكمة كانت الى ابعد الحدود من تأثير القيصرة التي تقوم سعادتها على تخفيف آلام الآخرين . كانت بعد كل نصر في ساحات القتال تمنح الحرية لعدد كبير من الأسرى على انها نعمة من نعم الله . ومن أجل هذا تمكن رحالة غربي أن يقول عن إيڤان في عام ١٥٥٨ : « اعتقد انه ليس من أمير في المسيحية من هو محبوب أكثر منه » .

وفي الكريملين كان إيڤان يعيش عيشة الترف . ولم يكن يظهر إلا في اثواب بهية من الذهب مرصعة بالأحجار الكريمة او في ملابس ارجوانية متوهجة وفراء . وكان يتصرف بكبرياء عظيمة ويتلقى العرائض من الجميع حتى ان افقر الناس في البلاد ولأول مرة في التاريخ الروسي كان